المعاملات بين الخالق والكون والخلق
قراءة في قصار السور القرآنية

أ.د. محمد عثمان صالح
الامين العام للهيئة

الحمد لله المتفرد بالعزة والجلال، المنزه عن الشبيه والمثال، أرسل الرسل هداية للعالمين، وختمهم بإمامهم المصطفى المصفى محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

أما بعد

فهذه هي القراءة الرابعة المتأنية في قصار السور القرآنية من جزء عم. ألحقها بما سبق من قراءات في هذا الكنز العظيم، الذي أقيم عليه أساس الدين، من عقيدة سليمة تحقق الإيمان الكامل بالله تعالى، ورسله ورسالاته، ومن معاد ووعد ووعيد، ومن بشارة ونزارة تصلان إلى القلوب التي تنفعها الذكرى .. وهي القلوب المهيأة للعبادة ومناجاة الحق جل جلاله.. بالصلاة والزكاة والصدقة وأنواع البر، التي لا يتحملها إلا أولو الفطرة السليمة ، والأخلاق العظيمة.

وفي هذا الفصل سنبين - بإذن الله تعالى- موضوع المعاملات ، وأنواع الذين يعاملون من خلال قيم ثابتة ونمازج واضحة، بينتها قصار السور القرآنية بياناً واضحاً . من قصص الانبياء والأمم الماضية، ومن الايحاء البياني في السرد القرآني المعجز. وسنركز هذه القراءة الاخيرة في هذا السرد المتأمل على الآتي:

اولاً : معاملة الخالق للخلق

ثانياً: المعاملة مع الخالق جل جلاله .

ثالثاً: الكون وآفاقه وسننه .

رابعاً: الخلق من إنسان وحيوان ومخلوقات

المعاملة من الخالق عز وجل للمخلوق

ليس غريباً أن نبدأ بمعاملة الله تعالى مع خلقه ليعرفوه، قبل معاملة الخلق مع خالقهم ليشكروه ويعبدوه ، ففي سورة النبأ وعدهم بأنهم سيعلمون والعلم منحة كبيرة ةمنة عظيمة . علم في الدنيا وعلم في الآخرة. (كَلَّا سَيَعْلَمُونَO ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) (النبأ ٤-٥) والله أعلم بما يوعون (الانشقاق)

ثم يمتن على الثقلين الإنس والجن من الآية السادسة الى الآية السادسة عشر، بأمور بها قوام الحياة فقد مهد الارض وثبتها بالجبال ، وجعل الحياة زوجية - لأنه سبحانه المتفرد بالوحدانية - وجعل الليل سكناً وراحة للناس. والنهار للكد والكدح علي المعاش والصورة بعد ذلك زاهية سراج وهاج، وماء ثجاج، وجنات ألفاف . صورة بديعة تعد من نعم الخالق المنعم (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) النبأ ٢٩)

وفي سورة النازعات يخاطب جل جلاله

خلقه بأن يعتبروا في انفسهم الضعيفة مقارنة ببناء السماء ، وإرساء قواعد الارض في تكورها (دحيانها) والامتنانْ هو على روعة المتاع ونعمته. (متاعاً لكم ولأنعامكم) . ويستمر الامتنان من الحق على الخلق. والمقصود الاعظم هنا هو الانسان (فلينظر الإنسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقا الى قوله سبحانه : (مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (عبس ٣٢)

هل لاحظت تكرار ذات الالفاظ الكريمة في الآية ٣٢ من النازعات.

انه امتنان حق. فلولا الغذاء لما عاش الكائن الحي، ولولا الماء لما كان الغذاء من الأنعام وغيرها . انه لتناسق معجز.

وهل التفتنا إلى البناء اللغوي في التكوير (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْO وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْO وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ). التكوير (١-٣))

فمن كور وكدر وسير . السورة تترك التفكير في الفاعل لكل أحد حتى يصل الى انه رب العزة والجلال الذي يعلم السر وأخفى . وهو الذي يعلم كل نفس ما أحضرت من الفعل والترك والقول والصمت حتى خبايا ما في النفوس (يوم يقوم الناس لرب العالمين) المطففين٦

ومثل هذا العلم في سورة الانفطار (علمت نفس ما قدمت وأخرت) الانفطار-٥. وفيها يمتن الله تعالى على الانسان أيضاً بالخلق والتسوية والتعديل واختبار الصورة، في اية صورة كانت ، بديعة أو خلافها، ومع ذلك فالانسان أكثر الخلق جمالاً وفتنة . في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فيزيره ربه جمالاً وروعة . (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ □ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (القيامة ٢٢-٢٣)

ومن ثم (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) (المطففين٢٤) وفي سورة الطارق يذكرهم - أي الناس- بأصل خلقهم الماء المهين، الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب (٧) حتي لا يظن المفتون بجماله، والمفتونة باستواء عودها انهما كانا كذلك !! وهذا الخلق الذي بدأ من الماء المهين ما وجه المقارنة بينه وبين السماء التي رفعت ، والابل التي خلقت، والجبال التي نصبت، والارض التي سطحت؟ (وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْOوَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْOوَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْO فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌO لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)(الغاشية ١٧-٢٢)

لا مقارنة لكنه التذكير بنعمة الخلق ونعمة الجمال والتسوية لتتم التزكية (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىO وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىO بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَاO وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىO إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىO صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)(الاعلى ١٤-١٩).

ونعمة أخرى من الجليل المنعم. انها نعمة الحفظ . حفظ الاجنة في بطون أمهاتها. وحفظ النفوس عند نومها وسباتها. وحفظ الاعمال حين الانتباه أو الغفلة. والمقصود هنا النفوس في أية مرتبة من مراتبها. فكلما يحفظ الحق عز وجل نفوس الأبرار كذلك يمهل الفجار والأشرار . لكن كما ورد في الخبر: (إن الله يملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته (١) ويقول سبحانه وتعالى في ذات السورة (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداًO وَأَكِيدُ كَيْداًO فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدا) (الطارق ١٥-١٧)

١١٥ الامهال كان يقتضي التوبة والرجعة إلى الاعتراف بنعم الله تعالى ، لكنهم قلما يستفيدون من هذا الإمهال. وتأتي السورة التالية (الأعلى) تذكر وتنبه بل وتأمر!! (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىO الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىO وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىO وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىO فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىO٥□ سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَىOإِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىO وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) (الاعلى١-٨) وهذه بشارة بعد امتنان.

وفي السورة التالية يخاطب أولى الألباب مقسماً بظواهر كونية ملحوظة لها في الكون وقع ومكان (وَالْفَجْرِOوَلَيَالٍ عَشْرٍO وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِO وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِO هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) (الفجر ١-٥) والحجر هو الحجر الذي هو العقل (٢) اما المقسم عليه فهو التحذير من عواقب الهالكين المعاندين (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِO فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) (الفجر ١١-١٢)

من هنا نعلم ان أخطر ما يعاقب الله تعالى عليه هو الطغيان والفساد . فاعتبروا يا أولى الألباب (٣)

وأشد أنواع التذكير والالتفات والامتنان على الانسان ما جاء في سورة البلد بعد القسم الإلهي العظيم (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌO يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًاO أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌO أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِO وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِO وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (البلد٥-١٠)

كيف كانت هذه الهداية ؟ إنها هداية البيان، ارسال الرسل وانزال الكتب، وأما هداية العناية فهي نعمة الله على الخواص الابرار المقربين (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد٢١)

ويوضح هذا أوضح بيان ما جاء في السورة التالية بعد القسم أيضاً المتصل بالنفس الانسانية (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَاO فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَاO قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَاO وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس ٧-١٠) وتشرح السورة التي بعدها الثنائية المتقابلة في أفعال الإنسان (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىO فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىO وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىO وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىO فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل ٥-١٠)

معاملة الخالق عز وجل مع الرسل :

جانب آخر من معاملة الخالق مع المخلوق في الهداية والعناية ارسل الرسل، ونصب الادلة على صدقهم بالآيات المرسلة أو بحدوث النوازل المنزلة، واول ما بدأ به الجزء الحديث عن النبأ العظيم. فما هو هذا النبأ العظيم؟ لقد قيل انه الرسالة التي انزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو القرآن الكريم وقيل هو يوم البعث، على خلاف بين المفسرين (٤) لكن على أية حال فان النبأ العظيم جاءت به رسالة، وصدقته بشارة ونذاره، وصح ما تم الوعد به!! في السورة التالية النازعات صدقت النبوة نبوة موسى عليه السلام. ألم يرسل هو واخوه الي فرعون الطاغية ، فماذا حدث ؟ صدقت النبوة وهلك الفرعون (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىO٢٥□ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) (٢٥-٢٦) والرسالة منهج للهداية فلابد ان تكون بالاسلوب الأحسن والافضل، بتوازن

لا يخل بين حاجة الضعفاء ومطالب الكبراء ، جاء القرآن ليؤكد هذه الحقيقة في توازن أسلوب الدعوة في الآيات التالية: (عَبَسَ وَتَوَلَّىO أَن جَاءهُ الْأَعْمَىO وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىO أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىO أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىO فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىO وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىO وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَىO وَهُوَ يَخْشَىO فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى (عبس ١-١٠) هذا التصويب للأسلوب وهذا التسديد للمرسل - عليه الصلاة والسلام - هو في حد ذاته إعجاز ، إن هذا الكلام لا يأتي على لسان مدع!! هذا الكلام إنما يأتي من خارج الذات ، لأن النفس الإنسانية تسعى الى تفخيم الذات وتعظيمها وأما العتاب فهو الزام بخطأ وقلما يقبله ادعياء العظمة.

وفي سورة التكوير مشاهد طبيعية مخيفة تحدث عند البعث، باخبار الصادق المصدوق وهي ستحدث قطعاً (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىO عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم ٤-٥) يأتي القسم في سورة التكوير مؤكداً (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِO الْجَوَارِ الْكُنَّسِO وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَO وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَO إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍOذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍO مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) (١٥-٢١) والآيات التالية تدفع عن المرسل عليه الصلاة والسلام تهم الادعياء الكفرة وما صاحبكم بمجنون...) وتأتي الآية المعجزة المصمتة (فاين تذهبون) (٢٦)

ليس لهم من جواب انه الالجاء الى قبول الحق وما هم بقابلين!! لقد قال صديق بريطاني اعتنق الاسلام في بريطانيا (٥) انه تأمل في هذه الآية بعد ان قرأ عن الأديان وكل المذاهب فما رأى فيها ما يحل المشكلة الإنسانية إلا وحي الله المنزل على المبعوث الخاتم محمد عليه الصلاة وأتم التسليم ، نعم ! أين تذهب البشرية بعد فشل نظامها الوضعي سياسياً كان ام اقتصادياً ام اجتماعياً أم ثقافياً، فماذا تفعل مجموعة الازمات الدولية المزعومة . ومجموعة الاتصال الموهومة لا شئ غير الخبال والخيال ومشاكل العالم هي هي من قديم واصدق شاهد على ذلك فشل مجلس الأمن المزعوم وجمعيته العمومية المغيبة وكل منظمات ما يسمى بالأمم المتحدة أن تحل مشكلة من مشكلات ما بعد الحرب العالمية الثانية..

ويكفي مثالاً على ذلك مشكلة فلسطين والكوريتين ومشكلة نزع السلاح ..الخ (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) (الانفطار٩) هذه هي المشكلة الابدية (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَاO إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَاO فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَاO فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) (الشمس ١١-١٤) سبب التكذيب هو الشقاوة والأشقياء هم دائماً أصحاب الجرائم الكبيرة مثل الطغيان .

وفي آخر هذا الفيض يأتي ذكر العلاقة الخاصة بين المرسل -عز وجل- والمرسل اليه - المصطفى صلى الله عليه وسلم (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىO وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىO وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) امتنان على عبد شكور . اكد له انه ما قلاه يعني ابغضه ولا تركه (٨)

في سورة الإنشراح إمتنان بشرح الصدر وجماع الأمر والخروج من البيئة الجاهلية

الضالة ليس هذا فحسب !! لكنه الإمتنان الأكبر الذي يستوجب أكثر من الشكر العادي، لأنه أوامر مستديمة لمهمة عظيمة (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْO وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (الشرح ١-١١)

وجاء التكليف بالعظائم من الأمور في سورتي المدثر والمزمل بعد الأمر بالقراءة والامتنان بنعمة الخلق في سورة العلق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَO خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍO اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُO الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِO عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (١-٥)

وفي سورة القدر تعظيم لشأن التنزيل، بالتكرار وبالاستفهام (إنا انزلناه في ليلة القدر وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، سلام هي حتى مطلع الفجر) والسؤال المهم أهي ليلة واحدة نزل فيها القرآن الكريم أول مرة؟ أم هي ليلة مباركة تستمر أبد الدهر بنورها وبركتها ؟ المجمع عليه انها كذلك ولا يلتفت لقول من قال بغير ذلك مصداق تكرارها الحديث الصحيح التمسوها في العشر الاواخر من رمضان (١٠) وهذه هي البينة.

ومن عجب أن السورة التي بعد القدر هي سورة البينة والبينة هي الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، والذي يظل هديه نوراً للمؤمنين وغصة في خلوق المنافقين المفارقين لسنته .

لقد جاءت أعظم ؟؟؟؟؟؟ من الله تعالى لرسوله الكريم في سورة الكوثر ، أن لا يهمه أمر المكذبين والمنافقين الحاسدين الذين يودون - لو آمنوا- ان يتنزل عليهم القرآن (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف ٣١)

لكن هيهات، مضت السفينة وجاء (النصر) المبين، وعد الله غير مكذوب أما الي سد المشرك ابولهب فقد تب ثم تب، (ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) واعوذ بالله من مصائر المعاندين صدق الصادق المصدوق صدق بصدق التنزيل إنه الإعجاز القرآني الذي حجب أبا لهب وامرأته ان يسلما ولو أسلما لكان في الأمر مشكلة لكن أني للاشكال ان يطرأ على الوحي الصادق (١١).

المعاملة بين المخلوق والخالق :

نقدم هذا العنوان لارتباطه بما سبق وأعني بالمخلوق هنا الإنسان، على أن نتطرق للمخلوقات الأخرى في إطار الكون، في مطلع الجزء الثلاثين في سورة النبأ الاخبار بأن حياة الإنسان تستمر بعد الموت وان هناك وعيداً ووعداً (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاًO يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) (١٧-١٨) والسؤال لماذا هذا ؟ الجواب عليه:

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداًO لِّلطَّاغِينَ مَآباًO لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) انظر إلى نهاية الآيات التالية التي تأكد فيها الوعيد الشديد (١٢-٣٠)

الصورة الأخرى المشرقة هي للعابدين المتقين من المؤمنين (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاًO حَدَائِقَ وَأَعْنَاباًO وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباًO وَكَأْساً دِهَاقاًO لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباًO جَزَاء مِّن

رَبِّكَ عَطَاء حِسَاباً) (٣١-٣٦)

ويأتي بعد ذلك التأكيد بيوم البعث ، كما تأتي الدعوة للعمل بمشيئة حرة واختيار ونية صادقة (ذلكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً○ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً) (٢٩-٤٠) يومئذ لا يجدي التكذيب كما جاء في السورة التالية (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ○ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ○ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ○ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ○ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) (النازعات٦-١٠)

هناك وقفة أخرى أشد وقعاً ، وهي قوله تعالى (فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى○ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى○ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى○ فَأَمَّا مَن طَغَى○وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا○ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى○ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى○ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) النازعات (٣٤-٤١)

القضية إذا قضية سلوك مع الله عز وجل ، في الصورة الأولى دعوة لترك العدوان والطغيان ، فمن طغى تجبر وتكبر ، واثره الحياة الفانية على الباقية، وأما من خاف مقام ربه وادرك حجم التكليف الذي يترتب على الإنسان تجاه هذا المقام فإنه يضع نفسه على جادة الطريق . مخالفاً لهوى النفس الذي يهلك فيه جل البشرية . ولذا جاء الانذار مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (إنما أنت منذر من يخشاها) والحديث عن الساعة والطامة . وهي كساعة في الورور ، لكنها خمسين ألف سنة في الشعور.

إن الخشية من مقام الحق عز وجل تقتضي الانتهاء عند حدود الأمر والنهي الواردة في القرآن الكريم، وهذا القرآن الحكيم تذكرة بالغة وبليغة . ومنبه باداة الزجر (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ○ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ○ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ○ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ○ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ○ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) (عبس ١١-١٦) وكان الشأن ان تكون المعاملة كما تقدم الانتهاء عند الحدود لكن الانسان على العموم طلوم كفار (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ○ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ○ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ○ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ○ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ○٢١□ ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ○ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) (عبس ١٧-٢٣) وكما انه لما يقضي ما أمره الله تعالى من الأوامر ، كذلك لم ينته عن النواهي وابشع ما في ذلك قتل النفس (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ○ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) (التكوير ٨-٩)

انه الإجرام عند هؤلاء الذين مارسوا هذه العادة - عادة قتل الاولاد خشية الانفاق والاملاق، كما هي جرائم بعض المعاصرين الذين يقتلون أجنة الحرام خوف الفضيحة!! إنها كلها جاهلية ساق اليها التبرج والاباحية ونسيان لامصير المحتوم، (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ○ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ○يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ○ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) (المطففين ٤-٧)

فالفجور والاجرام متلازمان لذا كان جزاءهما جهنم المعبر عنها (١٣) بسجين. والاجرام ضد الايمان وفي الحديث (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) وهؤلاء ضد أهل الدعوة المصلحين فاذا رأيت دعاة يضطهدون او يسخر منهم الساخرون ، فاعلم أن الاتجاه المعاكس هو معسكر المجرمين.

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ○ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ○ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ○ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ○ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) (المطففين ٢٩-٣٣)

صورة اخرى للطغاة المجرمين أصحاب الاخدود الذين اشعلوا للمؤمنين (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ○ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ○ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ○ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ○ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ○ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) (البروج٥-١٠) (١٤)

وفي مصائر الأمم الماضين أيضاً تبرز مصارع الطغاة لعتوهم وعلوهم وطغيانهم مثل (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ○الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ○ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ○ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) (الفجر ١٠-١٣) وعلينا ان نلاحظ ان الطغيان يلازم ارعاء الاستغناء عن الله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى○ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) (العلق ٦-٧) واوضح ان الطغيان يستهدف الدعاة الى الله والمصلين له (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى○ عَبْداً إِذَا صَلَّى) (العلق ٩-١٠)

والصلاة عبادة عموماً لا تكون إلا بإخلاص وهذا حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركون به شيئاً كما جاء في حديث معاذ الذي رواه الشيخان (١٥) وأما الآية الكريمة التي توجب الاخلاص فهي في السورة التالية سورة البينة قال تعالى (○وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (البينة اية ٥)

فمن التزم ذلك كانت المعاملة مع الخالق - عز وجل الرضي - المتبادل ونالوا الخيرية على البرية (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ○٧□ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) (٧-٨)

وميزان الخشية والعمل الصالح بأدق من ميزان الذهب (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ○ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ○) (الزلزلة ٦-٨) ومن عجب تأتي السورة بعدها لتبين لماذا كانت دقة الحساب؟ الجواب (إن الانسان لربه لكنود وانه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد) والكنود هو الجحود الذي لا يصل خيره الى غيره ، هل هي سمة في الكافر وحده أم هي سمة وخصلة إنسانية ، الغالب إنها كذلك ولذا اذا عمل الخير لا يضاع او ينقص من عمله شئ، واذا عمل الشر يكون الجزاء من جنس العمل..

وما دام الأمر أمر موازين فان السورة التالية وهي سورة القارعة فهي توضح اوضح بيان (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ○ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ○وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ○ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) (٦-٩)

على أن السورة التالية (التكاثر) تنبه إلى صراع الحياة في تكاثرها ولهوها والهائها، ويأتي تكرار الاخبار بالعلم في يوم لا ينفع فيه التكاثر الملهي عن ذكر الله وعبادته ، لأن العاقبة -اعاننا الله واياكم- ورود الجحيم وعظم المسؤلية عن نعيم الدنيا، وهي كما

عبر بعض المفسرين (١٦) ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك، وقد ورد في الحديث (الماء البارد من جملة النعيم)

معاملة الناس مع بعضهم:

تبدأ سورة النبأ مفتتح الجزء الثلاثين بتقرير حقيقة واقعة ، وهي اختلاف الناس في تقييم الأمور والازعان للحق، فهذا النبأ العظيم هم فيه مختلفون ولا يرفع الخلاف إلا بالعلم الوارد من الوحي، ومع ذلك هم يختلفون في فهم الوحي ذاته حتى لو كان محكماً غير متشابه.

الحقيقة الثانية التي أشرنا اليها هي زوجية الخلق وخلقناكم ازواجاً . الحقيقة الثالثة ان طغيان الانسان هو سبب الشقاء لنفسه وللآخرين كما اشرنا إلى ذلك من قريب ، والحقيقة الأخرى ان التكذيب بالرسالات هو الاعم في الأمم الماضية ويترتب عليه سنة كونية وهي اهلاك المكذبين المعاندين.

في سورة النازعات اشارة واضحة إلى ان التعامل بين الناس ينبغي ان يتجرد من الهوى ، الهوى المردي حين اتباع الشهوات والشبهات، وفي سورة عبس مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ○ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ○ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ○ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) (٣٤-٣٧)

لماذا هذا الفرار؟ إنه من الخوف من حساب سوء المعاملة مع هؤلاء الاقارب: الاخ، والأم، والزوجة، والابناء، فيا ويل من فرط في حقوقهم، او حمله الهوى على ظلمهم!! والأمر بالتتابع كل واحد من هؤلاء يخشى من حقوق الآخرين، فما اتعس الولد الذي لم يراع حقوق الوالدين، وما اظلم الزوج الذي يجور على الزوج الآخر ، ومعلوم ان لفظ الزوج للمرأة والرجل معاً ، وهكذا دواليك، إن اليوم الآخر يوم الحساب يوم تسود فيه وجوه وتبيض وجوه (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ○ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ○تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ○ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) (عبس ٣٨-٤٢)

إن من أهم وجوه التعامل بين الناس حفظ الحقوق والتعامل بالقسط من نصب ميزان العدالة وعدم الكيل بمكيالين الذي شرحته سورة المطففين فالذين لا يلتزمون قاعدة العدالة ويل لهم من عذاب الضمير في الدنيا ومن عذاب السعير يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين لتجري العدالة المطلقة.

لا فرار يومئذ لأن للفجار كتاب مرقوم (رقمي) وللأبرار كتاب مرقوم كذلك ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (١٧).

وما دام الأمر كذلك تأتي الدعوة للتنافس في الخير بالرغبة الى المبادرة في طاعة الله تعالى، والتنافس في هذا المقام محمود إلا أنه في غيره مذموم لأنه يؤدي إلى الشحناء والبغضاء ، لكن ما دام الأمر هو احراز قصب السبق في مرضاة المولى جل جلاله فلا حرج لأن رحمة الله تسع الجميع.

إن العلاقات الانسانية الراقية هي التي تدخل على النفوس السرور، والسرور الحقيقي هو الذي يبقى أثره بعد الموت، فمن كانت صحائف عمله الصالح ثقيلة (فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) أما الآخر الذي تضاعفت سيئاته ورجحت بحسناته فسوف يستلم كتابه

من وراء ظهره من غير إحترام ولا اكرام، ومعلوم أن الشخص المكرم يقدم له الإكرام من أمامه ويستلم الإكرام باليمين . لكنه لما فجر وكفر لا كرامة له ولا إكرام (١٨)

(فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا أنه كان في أهله مسرورا) السرور الذي يعقبه الحزن العميق، والندامة الأبدية لأنه لم يقدر العواقب يوم أن (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِه يَتَمَطَّى) (القيامة ٣٢) يتبختر إعجاباً في مشيته ويواقع زوجته المعبر عنها بالأهل فحجب عنه سرور الآخرة بسرور موهوم منقطع لا يدوم، وقد أوردنا الصورة في التعامل بين الأبرار والفجار الذين أجرموا.

أما سورة الأعلى ففيها دعوة قوية للتزكية والفلاح المتيرتب عليها، وفيها دعوة لايثار الباقية على الفانية ، والدعوة قائمة لهذه القيم من قديم (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى○ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّه فَصَلَّى○ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا○ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى○ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى○ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى○) (١٤-١٩).

تلاحظ هنا أمور منها أن التزكية تحتاج إلى الايثار الذي هو ضد الاثرة والموازنة بين مصالح الاخرة ومصالح الدنيا فاذا تعارضتا كان الترجيح لمصالح الاخرة ، فالغني بالحلال لا يعارض الآخرة لكنه ان كان بالحرام غير المعادلة. إن من القيم التي ترجح الموازين ، كفالة الايتام، والسعي على الأرامل والمساكين، أما الاشحاء اللؤماء فسوف يعضون اصابع الندم يوم الحساب حين يقال لهم: (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ○ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ○ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً○ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً) (١٧-٢٠)

إن ما يلاقيه الجحود الكنود يوم القيامة هو العقبة التي تحول بينه وبين الدخول في رحمة الله تعالى، كما ان عقبته في الدنيا هي الشهوات وحب الراحة وحب الإساك ، ولذا جاء التحضيض (فَكُّ رَقَبَةٍ○ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ○ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ○ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) (البلد ١٣-١٦)

وأضافت الآيات في ذات السورة بعداً قيمياً عالياً حين نادت بالتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، والمرحمة لفظ فيه ايحياء أبلغ من مجرد الرحمة (١٧ الايات)

وعلى ذات الوثيرة الخلقية العالية جاءت الدعوة في سورة الليل الى تسخيل الكسب والسعي لعمل الخير (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) والسورة كلها دعوة للعمل الصالح وترك البخل والشح والركون الي النفاق والكذب والتولي عن الحق.

وأما سورة الضحى ففيها جماع ذلك كله، فهي تؤكد أن الآخرة هي المقصود الأعظم والخطاب لسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم لكنه خطاب يتنزل على الأمة كلها بل على الانسانية قاطبة، وهي دعوة للإهتمام بالأيتام مكررة ، اليتيم ذو القرابة كما في سورة البلد . واليتيم بعمومه كما في ختام هذه السورة (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ○ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ○ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (٩-١١)

والسائل لأنه غالباً ما يضايق المسؤولين

أمر الحق تعالى ألا ينهر أو يقهر بل يعطى ما سأل، او يصرف بمعروف. ولئن سأل السائل في لحظة ضيق أو عسر فينبغي الصبر عليه ألم يمر معنا من قليل ضرورة بل لزوم التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (البلد ١٧) إذا الأمر الى ميسرة (فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا) يتبع ذلك دوام الشغل بالمهمات التي فيها تعب ونصب فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب.

والقائمون على هذه الدرجة من المشغولية المتعبة هم المقربون. اما غيرهم ففي أسفل سافلين، سفالة في تنكيس الخلق وربما سفالة في الخلق (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَO إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍO فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِO أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) (التين ٥-٨) بلى، إن الله هو الحكم العدل فلا يجور ولا يظلم، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه (١٩) وفي سورة العلق دعوة لمخالفة أهل الجحيم، والبعد عنهم لأنهم لا يدلون على هدى بل ينهون عنه، كما فعل أبو جهل مع المصطفى صلى الله عليه وسلم فهدده القرآن الكريم حيث قال (فليدع ناديه سندع الزبانيه) قال ابو جهل (أتهددني وأنا اكثر أهل الوادي نادياً) (٢٠) لم يرتدع بالوعيد فجاء التوجيه للنبي (كلا لا تطعه واسجد واقترب) وعبر السياق بالسجود عن الصلاة كلها لشرفه وقرب المصلى من ربه (٢١)

إن المعاملات الحسنة بين الناس لا تتم الا بالاحترام المتبادل، ولكن ما ينقض ذلك هو السخرية والهمز واللمز أنها صفات الجبناء البخلاء الأشحاء المشغولين بأنفسهم وبأموالهم التي يجمعونها يظنونها تخلدهم في الدنيا فلهم الويل (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍO الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُO يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (الهمزة ١-٣)

أما سورة الماعون فترسم صورة لبعض الناس الكذابين المكذبين المرائين الذي لا يلتفتون لأرملة أو يتيم. فاذا كانوا عن الصلاة ساهين وغافلين فمن باب أولى لا يعينون على تقوى أو فلاح (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَO وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (١-٧).

أما سورة الكافرون ففيها المفاصلة في العقيدة والشعائر (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَO لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَO وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُO وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْO وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُO لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (١-٦)

وهذا إيذان بالبراءة من الشرك وقد حدث أن اجتث الله تعالى الشرك من جزيرة العرب والمشركين دون أهل الكتاب، ففي الوقت الذي اعتبر المشركون نجس فزالوا منها فلا ينبغي ان يعادوا لها.

إن في دنيا الناس شروراً واثاماً وسحراً وشعوذة ولذلك جاءت سورة الاخلاق منجية من الشرك والشك، وحصنا حصيناً من أذى السحرة فهي والمعوذتان مع فاتحة الكتاب السر العظيم المنجي من الضلال والضلال، إن السحرة يستعينون بالجن والشياطين فمنهم النفاثات في العقد، ومنهم الحاسدون الذين يغيظهم نجاح الاخرين أو حصولهم على نعمة المال والجاه والولد، فيسعون

لدي السحرة المشعوذين عباد الشيطان لايزاء ذوي النعم من غير ان يؤذيهم هؤلاء لذلك شرع التعوذ صباح مساء كما جاء في الاخبار الصحاح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال (امرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة (٢٢) . قال بعض العلماء والمعوذات درس بليغ ، وتعليم نافع لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس وحمايتهم من شر ذوات السموم وشر الليل اذا أظلم (الغاسق اذا وغب) (٢٣).

التعامل مع الكون :

المفردات الواردة في قصار السور توضح بعد الافاق التي تحيط بهذا الكون. وكلمة الكون نفسها تدل على المكون أو المكونات التي خلقها الله تعالى فابدعها وسواها. والتسوية كمال وجمال وجلال . فلننظر الى المفردات في الارض والجبال والازواج (في كل شئ) والليل والنهار والسبع الشداد .

(وهي السموات التي ترى والتي لا ترى) والسراج الوهاج (وهو الشمس) المعصرات (وهي السحب) والحب والنبات والانعام والجنة وجهنم والكتاب والروح والملائكة واليوم الحق (وكل هذه المفردات الصور وما بعده من عالم الغيب عالم الملكوت) ومثلها ما ورد في أول سورة النازعات (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاًO وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاًO وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاًO٣□ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاًO فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً) (١-٥) كلها ترجع الي الملائكة في أرجح التفاسير (٢٤) وفي التكوير والانفطار مفردات أخري مدهشة ففيها الي جانب ما مر النجوم والبحار والوحوش والصحف والجحيم والجنة والخنس الجوار الكنس (٢٥) والليل والصبح . ثم السماء ذات البروج والطارق وما ادراك ما الطارق وهو النجم الثاقب كما جاء شرحه في الاصل. والقسم بالفجر والشمس والضحى والليل والتين والزيتون والبلد الامين والانسان والعلق وليلة القدر ولاعصر وهكذا لا يظن القارئ اني اورد هذه الاسماء للسرد، إني أوردها للتأمل في سعة ما في القرآن الكريم من آفاق الكون وتلون مفرداته وتكاثرها وكثرتها. إذ الكون لا يحيط بعظمة ما فيه إلا المكون الأعظم الله رب العالمين . فهو – سبحانه- ذو العرش المجيد الفعال لما يريد(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِO وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِO وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍO قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِO النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِO إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) (البروج١-١٦) فلننظر بعد ذلك إلى العلاقة بين هذه المكونات وخالقها العظيم . أولها انها تعرف أنها مخلوقة . وان لم تنطق بلسان المقال فانها ناطقة بلسان المحال أنها طائعة لخالقها، قال تعالى في المقابلة بين الكافرين المعاندين الجاحدين نعمة الخلق والايجاد وبين السموات والارض وهي المكونة للطاعة ، (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَOوَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَO ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (فصلت ٩-١١)

(لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي

شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ) (آل عمران ٢٨)
الطوع معلوم ولكن كيف الكره؟ الواضح أن انفاذ الكائنات لنواميس الله في الكون وعدم مقدرتها على المخالفة هي الطاعة الجبرية فهل يستطيع الانسان أن يعيش بلا أكل أو شرب؟ وهل يستطيع ان يمد في عمره إذا جاء الاجل؟ وهل تستطيع الشمس أن تخالف أمر الله تعالى فتشرق من المغرب إذا لم يحن الموعد؟ والحب إذا وضع في التربة وتسقى بالماء هل يخالف سنن الله الكونية في النبات وهكذا .

إذاً الكون كله طائع لله تعالى تجري الافلاك بدقة متناهية فاذا جاء الموعد اختل النظام لمقدمة نظام آخر (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاًO يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاًO وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباًOوَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) (النبأ ١٧-٢٠)
هذا (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُO تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌO فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) النازعات (٥-٧) (١٣-١٤).

ذاك يوم تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم.ز يطيع كل شئ أمر الصانع الحي. فالسماء تنفطر، والكواكب تنتشر، والبحار تنفجر صورة مهولة . لكنها حادثة لا محالة (٢٦) حتى علوم الفيزياء تقول إن الكون خاضع للطي والنشر . شهادة حتى من الملاحدة .

الكون إذا كله يسبح طاعة لله تعالى فما بال بعض الناس لا يسبحون؟ ولذا جاء الامر الإلهي للإنسان الكامل (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىO الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (الأعلى١-٣) إنه تسبيح ينبغي أن يكون ضد النسيان (سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَىO إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىOوَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىO فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىO سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىO وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) (٦-١١).
الأشقياء هم الذين لا ينظرون معالم الدهشة في صنع الكون. (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ- وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ-وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ- وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ- فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) الغاشية١٧-٢١) .

أما الذين أبوا الذكرى في الدنيا فسيتذكرون في الآخرة يوم أن تدك السماء دكاً (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً- وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً- وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) (الفجر ٢١-٢٣)
خلاصة هذا الفصل أن الكون يسبح بحمد الله . طاعة وانقياداً للسنن الكونية الربانية وأن بعض الناس سيحون الله تعالى ويعبدوه ليلاً ونهاراً (وهم المؤمنون) ويخلصون له طوعاً واختياراً. وأما البعض الآخر فهم دون ذلك مع الدواب والشجر ، كما أشارت لذلك الآية (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (الحج ١٨).

الهوامش:

١/ سنن الترمذي. ٥/٢٨٩ حديث رقم ٣٠١٠
٢/ الطبري. جامع البيان ٢٤/٣٩٦
٣/ سيد قطب ، في ظلال القرآن جزء ٣٠
٤/ ابن كثير ، التفسير ٨/٣٠٢
٥/ الشيخ عبد القادر أحد المهتدين للاسلام في عقد الستينات من القرن العشرين ألف رسالة صغيرة بعنوان أين تذهبون. وقد اقام فرقة مرتبطة لفرقة في المغرب تدعي بالحبيبية.
٦/ وسمعت ذات المعني من مهتدى آخر من بريطانيا كان زميل دراسة في جامعة انبرة في اوائل السبعينيات من القرن المنصرم هو بيتر أني الذي سمي نفسه بعبد الصمد - اسأل الله ان يختم له بحسن خاتمة.
٧/ راجع رسالتي الإعجاز القرآني في النظام الاقتصادي ، دراسة في محك للازمة الاقتصادية العالمية ٢٠٠٨-٢٠٠٩ نشر هيئة علماء السودان أنظر أيضاً د. بدر الدين طه ، الاقتصاد الاسلامي البديل المنتظر، شركة مطابع العملة ٢٠٠٩م.
٨/ لازحيلي ، ٣٠/٢٨٢
٩/ الجلالين ، ٥٩٦
١٠/ صحيح مسلم ٢/١٧٠ ح/رقم ٢٨٢٢ - البخاري ٢/٧١١ ح/١٧١٨
١١/ ابن كثير ، ٤/٥٦٥ والزحيلي ٣٠/٤٦٠
١٢/ سيد قطب ، في ظلال القرآن جز ٣٠
١٣/ صحيح مسلم : ٢/٨٧٥ ح/٢٣٤٣ - البخاري ١/٥٤ حديث رقم ٢١١
١٤/ سيد قطب ، في ظلال القرآن جز ٣٠
١٥/ صحيح البخاري ، ٣/١٠٤٩ ح/٢٧٠١
١٦/ الزحيلي ، مصدر سابق ، ٣٠/٣٨٤-٣٨٩
١٧/ أنظر إشارة سابقة في الفصل الأول من هذا البحث لاعجاز قرآني في ذكر الكتاب المرقوم
١٨/ المصدر السابق
١٩/ الزحيلي ، مصدر سابق ٢٠،٣٠٩،٢١٠
٢٠/ الطبري ، التفسير جامع البيان ٢٤/٥٢٥
٢١/ الامام مسلم، الصحيح
٢٢/ رواه احمد وابو داوود والنسائي
٢٣/ الزحيلي ، مصدر سابق ٣٠/٤٧٠
٢٤/ تفسير الجلالين ١/٧٨٩
٢٥/ المصدر السابق ١/٧٩٤
٢٦/ سيد قطب ، الظلال، ومشاهد القيامة في القرآن الكريم.

المصادر والمراجع :

١/ القرآن الكريم (جزء عم وإشارات أخري تذكر في مواضعها)
٢/ البخاري ، الإمام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح.
٣/ الترمذي
٤/ أحمد، الامام احمد بن حنبل.
٥/ ابو داوود
٦/ مسلم، ابي الحسين مسلم بن الحجاج
٧/ النسائي
٨/ الجلال المحلي ، تفسير الجلالين
٩/ الجلال السيوطي تفسير الجلالين.
١٠/ الزحيلي ،و هبه، التفسير المنير، دار الفكر، رمشق ١٩٩١م.
١١/ الطبري ، محمد بن جرير
١٢/ القرطبي
١٣/ سيد قطب ، في ظلال القرآن الكريم.
١٤/ سيد ، مشاهد القيامة في القرآن الكريم
١٥/ مالك، ابن النيل، الموطأ
١٦/ الامام البيهقي ،الجامع لشعب الايمان.